كتابه « واجعلنا للمتقين اماماً » يريد ان يقتدى به وان معك اهل ذمة وعهد وقد اوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم واوصى بالقبط فقال « استوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمةً ورحما » ورحمهم ان ام اسماعيل منهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ظلم معاهدا او كلفه فوق طاقته فانا خصمه يوم القيامة » احذر يا عمرو ان يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً فانه من خاصمه خصمه . والله يا عمرو لقد ابتليتُ بولاية هذه الامة وآنست من نفسي ضعفاً وانتشرت رعيتي ورقّ عظمي فاسأل الله ان يقبضني اليه غير مفرّط . والله انى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً ان اسأل عنه يوم القيامة »

فانظروا أيها المسلمون وتأملو سيرة سلفكم الذين ملكتم بهم الأرض وكيف اكل خلفهم الاموال وظلموا اهل الذمة والمعاهدين حتى دالت لهم الدولة مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم « اذا ظُلم اهل الذمة أُديل للعدوّ » أى عادت لهم الدولة

باب التوسعة في التعليم

(الصحة فى تغيير الهواء . وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء)(*)

(٣٥) من هيلانه الى ارسم فى ٢٠ يونيه سنة — ١٨٥

كان « اميل » عليلا وكنت مشفقة عليه فى بداية مرضه من الحمى الحصبية ولكنه لم يصب بالحصبة والسبب فى عدم اخبارك بذلك هو ان

(*) معرب من باب الولد من كتاب اميل القرن التاسع عشر

الدكتور كان قد تعهد بان يكاشفك بسير المرض ثم انه لما لم يجد فيه ادنى خطر عليه رأى من العبث ان يوقظ ما نام من همومك ويحرك ما سكن من دواعي قلقك ولقد عجلت اليه العافية فلم يمض عليه خمسة عشر يوماً حتى رد له لباس الصحة وثابت اليه أوابد القوى واما انا فكان شأني غير ذلك لان ماقاسيته من التعب في ليالي سقمه التي لازمت فيها السهاد وما كان يساورني فيها من الحزن والاشفاق قد تزعزعت له صحتي ووهت به عافيتي وللطب الانكليزي في مثل حالتي هذه دواء لا بد ان يكون هو سيد الادوية على ما ارى وسندي في هذا الرأي ما اراه من ثقة الاطباء به في وصفه لمرضاهم ومن إذعان هؤلاء له طيبة به نفوسهم وهذا الدواء هو تغيير الهواء

نعم ان الهواء الذي نستنشقه في مرازيون جيد غير ان اخص مايعول عليه اطباء الانكليز في ايصائهم المرضى بتغيير الهواء لتجديد قواهم انما هو الانتقال من مكان الى آخر والنظر في مجالي الكون ومشاهده وتغيير ما التزموه من عاداتهم واني والحق اقول قد اعجبت بهذا الرأي بعض الاعجاب لاني اعلم ان ضواحينا التي يتوارد عليها السياح كثيراً غاصة بضروب المحاسن الحقيقية ولهذا السبب لم اعارض في هذا الرأي بل اذعنت له اذعان المريض المطيع الذي يجل احكام العلم ويكبرها .

لم تكلفنا معدات السفر كبير عمل ولا مزيد عناية فان السيدة وارنجتون بفضل خبرتها بطرق البلاد وجهاتها قد تكلفت بان تُشرِعَ لنا طريق السير وسقط قوبيدون على مركبة عتيقة من المركبات المكشوف مقدمها مرت عليها ايام كانت فيها اسعد حالا باصحابها وعلى فرس مُنْكِّ (كبير السن)

لا يزال فيه على كآبة منظره من القوة ما يقدره على احتمال مشاق الصعود والهبوط فى انجاد هذه الجهة واغوارها الكثيرة فاستأجرناها باجرة قليلة وفى صبيحة يوم ظعننا استوى الزنجي البار على كرسيّ المركبة استواء السائق المختال المعجب بنفسه

كان وجه « اميل » وقد زال شحوبه وعاد اليه لونه يتلألأ فرحاً ويزهر بشراً وطلاقة لانه لا شيء يلذ للاطفال كتوقع الحوادث ولكنا لم نصادف فى طريقنا شيئاً منها نقص عليك حكايته فلم نلاق سلبَةً ولا وحوشاً ولا اسارى مقيدين فى مغارات الصخور مع اننا قد جبنا ارضين مقفرة تحدها سواحل قفلة مهجورة معرضة لجميع مايطرأ من ضروب هياج البحر وطغيانه

لم يكن خروجي الى التنزه لمحض التداوي بتغيير الهواء بل كنت ارمي الى غرض آخر ايضاً وهو ان ينفعل « اميل » بما يشاهده من المناظر الخلوية وصورها المدهشة فتنقش لها فى نفسه آثار حية فانه يقال ان اول شيء بعث فى نفس بايرون[1] تباشير ولعه ولهجه بالشعر انما هو منظر مايوجد فى هضاب ايقوسيا من البحيرات وقمم الجبال ولست اعتقد ان « اميل » سيكون بايرون عصره بل لا اجد شيئاً من الحق فى التطلع الى ذلك ولكني اتكدر واحزن ان رأيته من حيث هو انسان لا يتأثر بما هو مسطور فى صفحات الكون من جيّد الشعر وبديعه

قد وهمت فيما علقته على هذا السفر القصير من الامل الكثير فى

(١) بايرون هو اللورد بايرون الشاعر الانكليزي مؤلف القصص الكثيرة التي منها قصة الفلام هارولد وقصة الدون جوان ولد فى سنة ١٧٨٨ ومات سنة ١٨٢٤

تنبيه القوى الحاسة فى « اميل » وها أنا ذه اعترف لك بخطأيَ صاغرة اذ قد تبين لي اني تعجلت فى هذا الامل فاني رأيته لا يشوقه الا النظر الى الجزئيات واستطلاع وقائع الحلوات وهو من حداثة السن بحيث يصعب عليه ادراك الاشياء فى جملتها ومجموعها

ترى ان الطريقة المثلى فى تنبيه الاطفال وبث روح الملاحظة فى نفوسهم ان لا تطلب منهم الملاحظة ولا يحملون عليها وقد سرت على هذه الطريقة فى سياستي « لاميل » فلم أشذ عنها الا مرة واحدة . ذلك اننا كنا فى راس ليزارد[1] وما أكثر عجائبه وان اردتَ تخيلها فمثل لنفسك صخوراً هائلة على جميع الاشكال بعضها قائم وبعضها ساقط وشيء منها متصل وآخر منفصل يهيج بينها البحر ويصطخب ومنها ما غمره البحر فطوّق جيده بقلادة من الزبد ولم يبد منه سوى رأس مخروطيّ املس مصقول لا تفتأ الامواج تغسله ثم تصور ان بصرك يتتبع من بعيد خط السواحل فيرى ما يتخللها من نقطة الى اخرى من الصدوع العظيمة والوهاد والمغارات المظلمة فاذا وقف الانسان وسط هذه المشاهد الكبرى كانت حيرته فى اختيار المكان الذى يشرف منه عليها . وقفت انا و « اميل » تجاه (كينانس كوف) وهو احد الخلج التي يُرى فيها البحر اجمل ما يكون وسط الاطلال وقطع الصخور واخذت بيده ثم قلت له انظر الى هذا المكان نظراً بليغاً وانقشه فى حافظتك فلعلك لن ترى هذا المنظر بعد اليوم

كأني بك تقول هل القوة الذاكرة مما يأتمر بأمرنا فنأمرها بالحفظ والذكر ؛ فأجيبك بأن لى بعض الحق ان اعتقد هذا اذا رجعت الى مادلتني

(١) هو رأس من رؤس سواحل انكلترا فى الطرف الجنوبي الغربي لمقومتيه كورنواي

عليه تجربتي . ذلك اني ايام كنت فيما يقارب سن « اميل » سافر والداي الى مقاطعة اوفرنى[1] واخذاني معهما وفى يوم من ايام اقامتنا هناك صعدنا على احدى شعاف الجبل المسمى مُنْدُور وهناك نشدني الله والدي جاهراً بصوته ان لا انسى ما كنت اشاهده فى تلك الساعة ما دمت حية ولا اراك الا سائلي عن نتيجة هذا الإقسام فاعلم ان جميع ما كان ينبسط امام ناظريّ فى ذلك الوقت من المشاهد المحدقة بي وهي مشاهد الجبال والربى والوديان لا يزال مرسوماً فى لوح ذاكرتي ومن هذا تعرف السبب الذى حملني على اتباع هذه الطريقة مع « اميل » نعم ان والديّ قد اوصياني بعد هذه المرة بحفظ منظر آخر لا اذكره الآن فلم يجد ذلك شيئاً فى الحفظ . وأنا استنتج من ذلك انه اذا تيسر فى وقت ما ان يكون للمربي شيء من السلطان على حافظة الاطفال فان هذا السلطان من الأمور التي لا ينبغي الافراط فى استعمالها

اذا وُكل « اميل » لنفسه كان دهشه بالاشياء التي يراها اكثر من اعجابه بها وهذا مما يحملني على اعتقاد انه لا بد فى رؤية الامور على حقيقتها كمال الرؤية من شيء من الخيال خذ لذلك مثلا وهو ان الطفل لا يعرف من البحر سوى دائرة الافق التي يحويها بصره وهى دائرة ضيقة بالنسبة للواقع فان حجاب المسافات يحول بينه وبين ما وراءها من بقية البحر فاذا كان الشاعر يغنى عن شهوده وترتفع نفسه اذا وقف امام مشهد المياه الجليل فذلك لانه ينظر بفكره الى ما وراء الافق من امتداد المحيط فانه متى

(١) مقاطعه اوفرنى هي اقليم قديم من اقاليم فرنسا قاعدته كليرمونت فيراند الفت منه ومن جزء من الهوت لوار والكروز مقاطعتا كانتال وبوى دودوم

انفك ساعة من ربقة عجز المشاعر الظاهرة تتسع في خياله حدود العالم المشهود فيضيف الى هذه البقعة المائية المضطربة التي لا يرى منها الا جزأ حقيراً مهما كانت دقة لبصره صورة عدم التناهي والجلال وكلاهما من مدركات العقل لا دخل للحس فيهما وبالجملة فانه يرى الجلال والعظم في ماهية البحر ومعناه الذهني لا في صورته المرئية

ان خلو نفس « اميل » من ملكة التفكر التي لا بد ان تظهر فيه بتقدمه في السن يكشف له سر عدم اكتراثه بما يراه من مناظر الكون بل تقليده غيره في الاعجاب بها كما يبين لي من انبعاث شوقه الى بعض جزئيات ما كانت تخطر ببالي مطلقاً ولهجه بها لهجاً شديداً ذلك ان معظم الصخور التي يتكون منها رأس الميزارد ولندس اند (طرف الأرض) وضع لكل صخرة منها اسم خاص بها كأنه يخاطب الخيال ويوقظه فيريك الدليل الحزيت منها صور العمود وعرين الأسد والمطبخ والمنافيخ والمقلاة والفرس وراس الدكتور جونسن ووجه الدكتور مسنتاكن وغيرها فمن هذه الاسماء ما ينطبق ولا شك على مناسبات خرافية تختلف درجة قربها او بعدها من الحقيقة غير ان منها أيضاً ما هو مبني على وجود وجوه شبه ظاهرة للعيان بين مسمياته الاصلية وبين تلك الصخور التي وضع لها ومن المحتمل ان تكون هذه الألعاب الكونية والصور الاتفاقية والحجارة التي تمثل هيأة الانسان او شكل شيء من الاشياء مع عدم نحتها بالمنحات هي التي بعثت في نفوس الأولين فكرة صناعة التماثيل ومهما كان اصل هذه الصناعة فان هذا الفن الفطري الاضطراري الذي نقشته على الصوان يد الخالق القادر هو من الغرائب غير المألوفة التي هاجت شوق « اميل » الى معرفتها فانه كان يجتهد من نفسه

فى ادراك ما بين قطع الصخر وبين بعض الاشياء المعروفة له تمام المعرفة من وجوه الشبه التى لم تقرب ايضاً (كما تدل عليه اسماء تلك القطع) عن فكر صيادي السواحل السذج البسلاء .

من عهد ان رأيت جميع النموذجات الاصلية لفن العمارة ظاهرة فى المغارات وسلاسل الصخور لم يبق الا الارتياب فى ان هذا الفن من مخترعات الانسان . ذلك لانك تجد فيها اصل النافذة القوسية والقباب بما يقومها من الارتفاع والانحناء والدعائم الثقيلة والعمود الرفيع المخطط والشبابيك الطويلة المقبوة والعماد وغيرها من الاشكال الكثيرة فليس على الخيال الا ان يتوجه الى هذه الكتل الصخرية المتراكمة حتى يميز النظر من بينها مثلاً لمعابد عتيقة وصفوفاً من تماثيل صخرية ذات وجوه ناقصة وزخرفاً رمزياً ووحوشاً خرافية لو فصلت من الصخر لكانت شخوصاً مستقلة

انى على كوني لست من العلماء ولا من الاثريين كان يودي ان اعلم « اميل » فى هذه الفرصة الجميلة بان القي فى ذهنه معنى للآثار السلتية[1] التي لاتخلو منها بعض جهات كورنواي واكثرها شيوعاً هو كما تعلم الدوائر القسيسية[2] والاحجار الطويلة القائمة فى الارض على قواعدها كالمسلات والرؤس الصوانية الطبيعية التى صارت بعد عمل صناعي قليل هى الحصون الاولى للبلاد تحميها من لصوص البحر ولقد كان اشد هذه الآثار استمالة لى مدرج بيدين فى رأس ليزارد

---

(١) السلتية نسبة الى السلت وهم شعوب قديمة من الناس كانوا يقطنون بلاد الغول وشمال ايطاليا وبريطانيا العظمى وايرلاندا (٢) نسبة الى القسيسين لانهم هم الذين كانوا مختصين بهذه الدوائر فلا توجد فى غير محالهم

ومما يحمل على الظن بان يد الانسان هي التي نحتت هذا المدرج في الصخر ما يشاهد في بعض ارجائه من آثار اعمال تلك اليد القطرية التي محا نصفها كرور العصور وما نبت من الاعشاب الدقيقة على سطح الصخور ومن الاقوال المروية في شأن ذلك المدرج ان الدوائر العظيمة الناتئة في سمك الحجر كانت فيما غبر من الزمن صفوف درجات وان السلت قد انتهزوا حينئذ فرصة وجود منحنى خطته يد الفطرة ووهدة يزيد البحر في قاعها فجعلوها مسرحاً لابصار النظار وعملوا لجمعهم حولها . اذا صحت هذه الرواية فليت شعري ماذا كان المنظر الذي كان يحشر الناس له في هذا المكان ؟ ان كان ذلك هو الكون وعظمه فانه مشهد جدير باثارة وجدان الاعجاب والاكبار خصوصاً في هذه البقعة ولكني أرجح ان ذلك الاجتماع كان لقضاء بعض المناسك الدينية لوجود جملة من الصخور السوداء ناهدة على سطح الامواج تجاه المدرج يقال ان القسيسين كانوا يتخذونها مذابح للقربان وتلك شعائر اقل ما فيها العظم والجلال

يوجد ايضاً في هذه الناحية حجارة عمودية يتألف من تناسقها دوائر متناسبة الاجزاء تسمى بالكروملك يكتنفها نبات الحلنج الأدكن المحزن فيورث رائيها الغم والخوف ولكن أنى « لاميل » ان يكون له كبير اشتغال بمثل هذه الآثار القديمة وهي خلو من اثر صناعة النقش ومجهولة التاريخ وكيف يرجى منه الاهتمام بها ؛ على اني ارى ان نفسه قد انفعلت بآثار كامنة فيها لما شاهدناه ستظهر فيه يوماً من الايام واني أستند في هذا الامر على امر صبياني جداً غير ان كل شيء في عالم الطفولية هو اكبر مما يظن به ودونك قصة هذا الامر :

كان يوم ١١ يونيه عيد ميلاد « اميل » فاراد ان يشهر هذا اليوم العظيم بمأدبة خفيفة موافاة لما تقضي به عادة اهل البلد الذي نسكنه وفوق ذلك فانه فى هذا العيد قد عمد الى اختراع افتخره افتخاراً فقد اخذ بثوبي وسار بي الى بستان فرأيت فيه وأنا فى غاية الدهش كوماً من الاحجار المتوسطة فى الحجم مرتبة ومرصوفاً بعضها فوق بعض بنوع من الحذق والصناعة وعددتها فوجدتها سبعة فعلمت من ذلك انه قد استفاد من مدرسة قدماء السلت فانه لما فهم من الآثار التى زرناها على طول الساحل انها أقيمت تذكاراً لحادثة من الحوادث طبق ما رآه على نفسه فاصبح كما ترى وله أن يقول ماقاله هوراس[1] من قبله وهو « قد رفعت لنفسي اثراً »

على انى أسائل نفسي لماذا يسمى سن « اميل » بسن التمييز والتعقل ؟ فليت شعري أىُّ شيء يتعقله الطفل فى السابعة من عمره ؟ لا اراه يتصور الجزئيات فانه لم يعمر من الزمن ما يكفيه لتصورها ولا يدرك الكليات فانه يجب لادراك هذه ان يكون العقل قد وصل الى حد معلوم من الرشد وانى اذا حكمت بمقتضى ما أدتني اليه تجربتي واختباري اقول ان « اميل » لا يزال اكثر انبعاثاً الى العلم بالاشياء منه الى الحكم عليها فالذى يهمه ويشغله انما هو كيفيات الموجودات الظاهرة وبعض دلائل الفكر وأماراته وسأبين لك مرادى بمثل آخذه من ضروب تسليتنا فانتظره فى المكتوب الآتى . اه

(١) هوراس هو شاعر لاتيني شهير ولد فى سنة ٦٨ ومات فى سنة ٨ ق م